ظاهرة التكفير في الفكر الإسلامي المعاصر

د.السعيد رحماني

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ظاهرة التكفير في الفكر الإسلامي المعاصر هو عنوان أطروحة الدكتوراه التي تقدم بها الطالب الباحث السعيد رحماني لنيل شهادة دكتوراه العلوم بكلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر، تحت إشراف الأستاذ الدكتور يوسف حسين، وذلك بتاريخ 18 نوفمبر 2008 م.

ونوقشت بقاعة المطالعة أمام لجنة علمية متكونة من السادة الأساتذة الآتية أسماؤهم:

1. الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم رئيسا .
2. الدكتور عزيز سلامي مقررا مساعدا .
3. الأستاذ الدكتور السعيد عليوان عضوا
4. الأستاذ الدكتور عمار جيدل عضوا.
5. الأستاذ ة الدكتورة شافية الصديق عضوا.
6. الأستاذ الدكتور عبد القادر بخوش عضوا.

وبعد المناقشة العلنية والمداولة السرية تم منح الطالب الباحث شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية تخصص أصول الدين، بتقدير مشرف جدا بإجماع أعضاء اللجنة.

وفيما يلي ملخص للأطروحة :

إن ظاهرة التكفير من أخطر الظواهر التي عرفها العالم الإسلامي وابتلي بها الفكر الإسلامي قديما وحديثا، ونظرا لخطورة هذه الظاهرة وآثارها السيئة، والخطيرة على الإسلام والمسلمين، فقد التفت إليها الباحثون والدارسون من العرب والمسلمين ومن غيرهم من المهتمين بالشأن الإسلامي.

وقد وقع اختيارنا على هذا الموضوع الشائك والحساس قصد دراسته، وبحثه من جوانبه المختلفة بغية الوقوف على الأسباب الحقيقية التي تقف وراء هذه الظاهرة، واكتشاف الأبعاد والآثار السلبية التي تركتها على الأمة وعلى المجتمع، وعلى الفكر الإسلامي، وعلى العلاقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم الأخرى.

أما الأسباب التي دفعتني إلى بحث هذا الموضوع فهي كثيرة منها ما سلف ذكره ومنها أخرى ورد ذكرها في مقدمة الدراسة.

إن هذه المحاولة التي تهتم بدراسة هذا الموضوع، جاءت تحت عنوان (ظاهرة التكفير في الفكر الإسلامي المعاصر) ـ لكي أركز فيها على التكفير في الفكر الإسلامي المعاصر نظرا لخطورته وانتشاره غير المسبوق، وآثاره المدمرة على الإسلام والمسلمين.دون أن أغفل البدايات الأولى للتكفير في العالم الإسلامي وآثاره.

وقد قسمت الدراسة إلى مقدمة ومدخل تمهيدي،وخمسة أبواب، أما المقدمة فقد بينت فيها أهمية الموضوع وحاجته إلى بحث أكاديمي معمق، وذكرت الأسباب التي جعلتني أختاره، كما بينت المنهجية المتبعة في إنجازه،والخطة المعتمدة في ذلك،دون أن أنسى الإشارة إلى أهم الدراسات التي اهتمت بموضوع التكفير .

أما التمهيد فقد خصصته للحديث عن أهم المصطلحات الواردة في عنوان الأطروحة، ومن ثم حاولت بيان معنى مصطلح الفكر الإسلامي، وبينت طبيعة وخصائص الفكر الإسلامي،كما تحدثت عن مسألة مهمة هي بيان معنى الدين ومدى حاجة البشرية إليه ومعناه عند العلماء المسلمين، وبينت أيضا طبيعة النصوص الدينية وصعوبة فهم الدين فهما منضبطا ودقيقا، بعيدا عن التأويل والتمحل المغرض الذي لا يتصف بالموضوعية.

أما صلب الرسالة، ومحتواها الرئيسي، فقد جعلته في خمسة أبواب. جاء الباب الأول بعنوان (ظهور الإسلام وتكون العقيدة الإسلامية) مقسما إلى سبعة فصول ،تحدث الفصل الأول عن أهم حدث عرفته البشرية هو نزول

القرآن وتكون العقيدة الإسلامية ونشأة المجتمع المسلم الذي يقوم على مبادئ العقيدة الإسلامية التي استقرت في نفوس المؤمنين الذين آمنوا بالرسول واتبعوه.

ثم جاء الفصل الثاني لتناول مفهوم الإيمان وحقيقته، وكيف يقوم الإيمان بالنفس ويستقر بها فلا يغادرها أبدا لأنه مرتبط بالعقل والوجدان والعمق الداخلي والنفسي للإنسان.فالإيمان بالله تعالى هو قناعة عقلية ونفسية تستقر في نفس الإنسان وتلتصق بذاته تماشيا مع فطرته التي فطره الله عليها منذ الأزل كما بينته آية العهد.كما تحدثت في هذا الفصل أيضا عن معنى الكفر وأقسامه وبينت أن الكفر له معان عدة منها ما يعني الخروج من الملة ومنها ما يعني ما هو دون ذلك ،كما بينت المعاني المتنوعة التي ورد بها لفظ الكفر في كل من نصوص القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ،إذ تبين من خلال هذا الفصل أن لفظ الكفر قد يطلق ويراد به المعنى الاصطلاحي للكفر أي المعنى المخرج من الملة، وقد يرد ويراد به غير ذلك وهو أكثر استعمالات القرآن والحديث النبوي الشريف.

وجاءت باقي الفصول مخصصة لبحث موقف الفقهاء والمتكلمين من قضيتين مهمتين هما علاقة الإيمان بالعمل وزيادته ونقصانه وأثر المعاصي عليه، ومسألة الذنب والكبيرة وأثرها على حقيقة الإيمان وموقف الفقهاء والمتكلمين من مرتكب الكبيرة . وفي هذه المسألة توصلت الدراسة إلى أن العلماء والفقهاء المشهود لهم بالعلم والمكانة يقولون بعدم كفر مرتكب الكبيرة، وبعدم خلوده في النار على عكس الفرق والتنظيمان الغالية المكفرة منذ فرقة الخوارج إلى فرق الغلو والتطرف في هذا العصر.

وأود أن أشير هنا إلى أن هذا الباب يعد الأساس النظري والمعرفي لما سيأتي من باقي أبواب وأبحاث الدراسة.

أما الباب الثاني فقد خصصته لبحث ظاهرة التكفير في الفكر الإسلامي القديم ،فقسمته إلى سبعة فصول تناولت في الفصل الأول تعريف التكفير وبينت أنه حكم شرعي من اختصاص الشرع لا يحكم به إلا القضاء الشرعي، وان التكفير هو الحكم على المسلم بالكفر والخروج من الملة .

وهذا الحكم له تبعات كثيرة وخطيرة على الفرد وعلى أسرته وعلى حياته وعلى علاقاته بالمجتمع المسلم وبالحياة الإسلامية برمتها.

ثم بينت الأحكام المتعلقة بالتكفير من مختلف جوانبه، والضوابط التي وضعها الفقهاء والمتكلمون للحد من ظاهرة التكفير وتأثيرها عليهم وعلى المسلمين وهذه الضوابط كثيرة لكن أهمها:

- لا يكفر أحد من أهل القبلة .
- لا يكفر المتأول من المذاهب الإسلامية.
- لا يكفر بلازم المذهب ،لأنه من أكثر ما يكفر به.
- القطعي من العقائد و الأحكام التي يكفر منكرها.

فهذه الأمور تسمى بالضوابط، وهناك مجموعة أخرى من الأمور التي يجب مراعاتها والنظر إليها للحد من التكفير بين المسلمين وتسمى القواعد، وهي بدورها كثيرة لكن أهمها ما يلي:

- الدخول في الإسلام يكون بالنطق بالشهادتين .
- الحكم بالإسلام على الشخص منوط بالظاهر أما الباطن والسريرة فأمرها موكول إلى الله تعالى.
- كل من نطق بالشهادتين من المسلمين فهو معصوم الدم والمال والعرض.

وغيرها من القواعد التي وردت في صلب البحث مفصلة.

وفي الفصل الرابع تناولت بالبحث والدراسة الخوارج كأول فرقة تمارس التكفير الشمولي في تاريخ المسلمين وبينت أهم الأسباب التي أدت إلى ظهورها والأفكار التي تقوم عليها مواقف هذه الفرقة ،وفي مقدمتها تكفير مرتكب الكبيرة وكل من يخالف أرآء وعقائد الخوارج ولو كان من كبار الصحابة كعثمان وعلي والخروج على الحكام أتفه الأسباب واختيار المواجهة المسلحة والعدوان على الأرواح والممتلكات كأسلوب وحيد لمواجهة الخصوم والمخالفين .فقد استباح الخوارج أرواح المسلمين

وأعراضهم وأموالهم وممتلكاتهم ،ونشروا فيهم السيف والقتل دون تمييز بين صغير وكبير وبين مسن وطفل ،بين محارب ومسالم.

ثم حاولنا بعد ذلك تعداد وحصر أهم النتائج والآثار التي تركها فكر الخوارج ومسلكهم على الأمة الإسلامية، وموقف العلماء القدامى من أفكار وتصرفات هذه الفرقة، ومواجهتها بكل السبل والطرق لدفع ضررها وشرها على الأمة الإسلامية.

وأما الباب الثالث فقد جعلته للحديث عن ظهور الحركات الإسلامية في العصر الحديث ،وفيه تناولت بالبيان والتحليل الظروف التي كان عليها العالم الإسلامي قبل بداية ظهور الحركات الإسلامية الحديثة ،وكيف كان وضع العالم الإسلامي قبيل قيام تلك الحركات الإصلاحية التي اتخذت لنفسها شعارا، هو إعادة بعث وإحياء القيم والتعاليم الإسلامية في العالم الإسلامي،بعد موجة الغزو العسكري والاحتلال الفكري والاقتصادي .

ثم بعد ذلك انتقلت إلى الحديث عن أول الحركات الإسلامية ظهورا متمثلة في دعوة محمد بن عبد الوهاب، التي تعد أول حركة منظمة تدعي العودة إلى الحياة الإسلامية وبعث الشريعة المحمدية في الواقع الإسلامي.

ومن أهم ما ركزت عليه البحث هنا هو الأسس والأفكار التي تدعو إليها الحركة، وأهم العقائد التي تتبناه، والمميزات التي تتميز بها، إن في المنهج والطريقة وإن في الأفكار والمنطلقات.ومن أهم ما توقفت عنده في هذا الفصل المخصص للحركة الوهابية، مميزاتها.وقد حصرتها في النقاط التالية:

1- التركيز على التوحيد والاهتمام به على حساب سائر الأمور الأخرى.

2 - تقسم التوحيد تقسيما جديدا يقوم على ثلاثة أصول هي توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

3 – التمسك بحرفية النص والجمود في التفسير والفهم والانغلاق على المذهب الحنبلي دون سواها من المذاهب الفقهية الأخرى.

4 – اتهام المسلمين من غير الوهابيين بالجاهلية والشرك وعبادة القبور والأضرحة.

5 – ادعاء امتلاك الحقيقة والصواب دون سائر المذاهب الإسلامية السنية الأخرى.

أما الفصل الثالث فقد تناولت فيه حركة الإخوان المسلمين بالبحث والتحليل واضعا في المقام الأول نشأة الجماعة والأفكار الرئيسية التي تدعو إليها ،ثم الآثار التي تركها فكر الحركة على من جاء بعدها من الأفكار والتنظيمات، كما درست وبينت موقف الحركة من الغلو والتكفير من خلال مواقف قادتها وزعمائها كحسن البنا وحسن الهضيبي وبينت أن موقف كل منهما كان ضد الغلو والتكفير سواء بالأقوال أو بالأفعال. وأن كل فكر متطرف أو تكفيري كان نشازا عن خط مؤسسها ومن خلفه من بعده.

وجاء فصل آخر من فصول الباب الثالث يتناول دراسة فكر سيد قطب ومقولاته الأساسية وعلاقتها بالفكر التكفيري، وموقف العلماء والمفكرين المعاصرين من تلك المقولات والرد عليها.

أما الباب الرابع فقد خصصته لدراسة تجليات الفكر التكفيري في العصر الحديث، وقسمته إلى عدد من فصول،تناولت في كل فصل قضية مهمة من القضايا التي تسعى الدراسة إلى بحثها بحثا أكاديميا،ومن هنا تحدثت عن الجماعات التي سلكت منهجا متشددا قائما على أصول فكرية من أهمها وأخطرها القول بكفر المجتمعات الإسلامية والحكومات القائمة في العالمين العربي والإسلامي ووجوب الجهاد والقتال لهذه الحكومات ولهذه الشعوب المرتدة عن الإسلام في هذا الزمان وأنها هي الجماعة الحق التي يجب اتباعها ومبايعة قادتها وزعمائها،فكان من نتائج هذا الفكر أن صار كل مسلم لا ينتمي إلى هذه التنظيمات هدفا مشروعا للقتل وكل عالم أو زعيم سياسي أو رجل دولة معرض للاغتيال والتصفية الجسدية .وقد تم عرض أفكار ورؤى أهم التنظيمات التي تنهج مسلك التشدد والغلو والتكفير،ممثلة في تلك التنظيمات التي ظهرت في مصر كجماعة التكفير والهجرة وحركة الجهاد والجماعة الإسلامية ،ثم التكفير السلفي ممثلا في احد أهم من يتسم منهجه وأسلوبه بالتكفير والتشدد والغلو الربيع المدخلي، وكذلك جماعة الأحباش التي تكفر المسلمين بمجرد إنكار بعض الفروع والجزئيات.

كما تحدثت عن أهم ما عرفه الفكر التكفيري من تطور في الفترة الأخيرة من تاريخه والمتمثل في المراجعات الفكرية والفقهية التي أقدم عليها زعماء ومنظروا هذه التنظيمات المتشددة والمكفرة بعد صراع دموي مرير وطويل مع الحكومات في كثير من بلاد العرب والمسلمين، وقد ركزت على مصر باعتبارها أكبر دولة وأول دولة ظهرت فيها هذه التنظيمات ومارس فيها الفكر التكفيري تجلياته ،صراعا وعنفا دمويا ،طال رجال الحكم وقادة الفكر وعامة الناس.

كما لم أهمل في هذا الباب الحديث عن أهم ما تميز به الفكر التكفيري في الأيام الأخيرة من المراجعات الفقهية والفكرية لأهم مقولات الغلو والتكفير،وإعلان العودة إلى ما كان عليه علماء الأمة وفقهائها الأعلام في مختلف العصور والأزمنة، ومن مختلف المذاهب السنية.

أما الباب الخامس والأخير من الأطروحة فقد بحثت فيه أسباب التكفير المعاصر، وتتبعت آثاره على واقع الحياة الإسلامية بمختلف جوانبها.وكذلك المخالفات التي وقع فيها المكفرون بنهجهم التكفيري الدموي، كما بينت موقف الفكر الإسلامي المعاصر من التكفير ممثلا بكثير من العلماء والمفكرين الذين بحثوا الظاهرة ودرسوها في مختلف مراحلها، أو الذين عايشوا بعض هذه التنظيمات من قريب.

وفي نهاية الدراسة وقفت على أهم ما تركه التكفير من النتائج والآثار السيئة على الأمة الإسلامية.

النتائج المستخلصة من الدراسة :

أما أهم النتائج التي انتهت إليها الدراسة من خلال أبوابها الخمسة التي لخصت أهم ما جاء فيها من المباحث فيما قدمت من الملخص،فهي كالتالي:

أولا: التكفير من أخطر الظواهر التي عرفها المجتمع الإسلامي منذ مقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه، إلى يومنا هذا.

ثانيا: إن إرهاصات ظاهرة التكفير بدأت مع النقاش الذي ثار بعد حادثة مقتل عثمان.

ثالثا: ظاهرة التكفير لم تبق محصورة في نطاق السياسة، بل تعدته إلى مجالات أخرى، كالفرق الكلامية والمذاهب الفقهية، والأحزاب السياسية.

رابعا: التكفير لم يكن قائما على مرجعية عقائدية ،ومستندا إلى خلفية سياسية إلا مع فرقة الخوارج ،حيث تداخل عندهم السياسي بالعقائدي، وخاصة في مفهوم الحاكمية ومسائل الإيمان ومرتكب الكبيرة.

خامسا: كشفت الدراسة عن افتقاد أصحاب الفكر التكفيري إلى الحجة الشرعية منذ عهد النبوة.

سادسا: إن أفضل وسيلة لمواجهة الفكر التكفيري هو الحوار والمناقشة العلمية، التي يتولاها العلماء،تأسيا بما فعله ابن عباس والإمام علي كرم الله وجهه.ولنجاعة هذا الأسلوب.

سابعا: إن ظهور التكفير في الفكر الإسلامي المعاصر يرجع إلى أسباب كثيرة، ومتنوعة، ومتداخلة.

ثامنا: تبين من خلال الدراسة أن هناك تطابقا في الفكر والممارسة بين التنظيمات التكفيرية المعاصرة، وفرق الخوارج في كثير من الأوصاف والسلوكات والأفكار.

تاسعا: إن آثار التكفير المدمرة تمس الدين والإنسان والمجتمع والدولة من مختلف الجوانب.

عاشرا: تبين من خلال الدراسة أن مآل الفكر التكفيري إما إلى:

ـ الاندثار والزوال.

ـ أو الرجوع إلى الاعتدال ونبذ التكفير.

وبهذا نكون قد قدمنا محاولة للمساهمة في إثراء الفكر الإسلامي الأصيل بهذه الدراسة.

والحمد لله رب العالمين.